شعر ابن هانئ في مضايق المذهبيّة

La poesía de Ibn Hāni' ante los problemas sectarios

Ibn Hani's Poetry in the face of Sectarian Problems

Hasna BOUZOUITA TRABELSI
Universidad de Túnez
hasna.trabelsi@yahoo.fr

Recibido: octubre 2008
Aceptado: diciembre 2008

ملخص
يقدّم هذا البحث تقييما جديدا لشعر ابن هاني (اشبيلية / أابيرا 320-932 برقة/ 362-973) و هو شاعر شيعيّ المذهب، اسماعيليّ النزعة. اختلف في شعره : فبعضهم حطّ من قيمته و بعض رفع من شأنه فشرّف صاحبه بمنزلة التنبّؤ حتّى غدا عند المغاربة كالمتنبّي عند المشارقة. و قد بيّنت الباحثة أنّه حلّق عاليا في أجواء المغالاة حتّى دخل منطقة المحرّمات، و خالف العرف في معاني الشعر حتّى رمي بالكفر، و أبدع في المباني : تصنّع و أغرب فأربك و ما ارتبك، و صنع و أعرب حتّى حوّل المضايق أوساعا و حقق فتوحا. و إن هو إلاّ رائد إعجاز. والشعر معجز البشر.
الكلمات المفتاح: ابن هاني. متنبّي الغرب. المذهب الشيعيّ. الاسماعيليّة. النشيد.

RESUMEN
El artículo presenta una nueva valoración de la poesía de Ibn Hani (Sevilla/Ilbira 320/932 – Barca, 362/973). De confesión chíi ismailí, la obra de este poeta fue juzgada de diversas formas: algunos rebajaron su valía mientras que otros la ensalzaron. Tan alto llegó su fama y prestigio en el Occidente islámico que fue comparado al gran poeta clásico, al-Mutanabbi, en Oriente. La autora muestra en su estudio cómo el poeta produjo una obra que pasaba de lo natural a lo exagerado hasta rayar el sacrilegio; iba contra lo establecido hasta ser tachado de hereje. Muestra también que el poeta tanto innovó en su poesía que fue considerada artificiosa y arcaica sin que esto le perturbara; más bien al contrario, siguió adelante obteniendo grandes triunfos para el arte de la poesía árabe.
PALABRAS CLAVE: Ibn Hani. Al-Mutanabbi del Occidente islámico. La corriente chií ismailí.

ABSTRACT
This study is a new appraisal of the work of Ibn Hani (Seville/Ibira 320/932 – Barca 3627973). From the Shia Ismaili branch, his work was judged in different ways. It was devalued by some and praised by others. Ibn Hani enjoyed such fame and prestige in the Islamic West that was he was even compared to the great classical poet Al-Mutanabbi in the East. This article will show how Ibn Hani´s poetry changed from natural to pompous, and even verged on sacrilege. It went against established norms to the point of being labeled as heretical. The study will also show that Ibn Hani poetical innovation was so extreme that his poems were considered affected and archaic. This negative assessment of his work didn't disturb the author; on the contrary, he kept achieving important successes for the art of Arabic poetry.
KEY WORDS: Ibn Hani. Al-Mutanabbi from the Islamic West. Shia Ismaili branch.

تـقدّمْ خـطًى/ أو تـأخّرْ خـطًى فإنّ الشّـباب/ مـشى القهقرى[29]

و فيها أيضا:

فـقُدنا إلى الوحش أشباهها و رعـنا المـهـا فوق مثل المـهـا
صنعنا لها كلّ رخو العنان رحيب اللّبان/ سليم الشـــظــى
عواري النواهق/ شوس العيون ظِماءُ المفاصل/ قُـبّ الكُلـــــى

عوّل على الأساليب الأثيرة عنده، الشهيرة في البلاغة العربيّة من تصريع و ترصيع، وموازنة و تقطيع، و ازدواج و حسن توزيع[30]، و تقرير و تخييل، مع حرص منه مؤكّد على التطويع بين الصوت و المعنى و البنية و الدلالة و السموّ بالمعنى إلى درجة الألق الشعريّ. ها هنا تكمن إضافة ابن هانئ، و إلاّ ما تأويل هذا الذي يحصل في ذهن القارئ أو يقع في وهم السامع عند إنشاد هذه القصيدة بأنّه ينصت إلى وقع حوافر الخيل على الأرض؟

قلب ابن هانئ إذن المضايق أوساعا و حقّق بها فتوحا.فولّد من العقائد الذهنيّة الجافّة المتضاربة في الأصل مع الشعر- و الشعر فنّ تغنّ بالجمال و تمجيد للمشاعر- صورا جميلة وتعابير لطيفة و أنغاما موقّعة و معاني بعيدة عن التعقيد في مجملها فسجّل فتوحا في تمجيد الإبداع و هيّأ مسالك جديدة في تطويع الشعر لما لم يوضع له في الأصل من معان عقديّة أو اتّجاهات ذهنيّة فلسفيّة.

حلّق ابن هانئ عاليا في أجواء المغالاة حتّى دخل منطقة المحرّمات. و خالف العرف في معاني الشعر حتّى رُمي بالكفر. و إنْ هو إلاّ رائد إعجاز. و الشعر الجيّد معجز البشر. فإذا كان للمتنبّي، ابن هانئ الشرق، "معجز أحمد"، فلمتنبّي الغرب "معجز محمّد". و هو بمذهبيّته أكثر تحدّيا.

أحدث ابن هانئ في الشعر نقلة نوعيّة: عزّز بيانا ببيان إذ شيّد على أساس البيان البلاغيّ بيانا عقديّا: دينيّا و سياسيّا، و جعل القصيد نشيدا. فما ارتضى مضايق المذهبيّة مدارا، إلاّ لأنّه كان على يقين من أنّه سيحقّق فتوحا في مجالات الفكر و الفنّ أوسع وأطرف.

[29] ق2، ب1 وب12 و13و16.

[30] ومثله يقال في الهمزيّه، ق 1 حيث خضعت الأبيات 36-41 للموازنة الترديد، وكذلك الأبيات 47-56 أو الميميّة ق 91 ، أو أيضا التونيّة (انظر ص ص 27 و 26 من هذا البحث).

فأحضر التصريع لأنّ البيت طالع، و عزّزه بأساليب مطاوعة لدقائقه المعنويّة ترسم بصمته الشخصيّة أهمّها:

- الترصيع حيث صرّف الأفعال الأربعة على شكل التزمه فيها جميعا فولّد أجراسا صوتيّة تلحق في التقدير النقديّ بالقوافي الداخليّة.
- الموازنة بين الكلمات مع حسن توزيعها في البيت إذ كانت أزواجا أحلّ كلّ زوجين منها في مواقع عروضيّة متماثلة:

زوجان بفعلين و آخران بفعلين آخريْن، تخضع جميعها للتوازن في مستوى أوّل محدود:

- فعلان في مطلع الصدر،على وزن فعولن: أصاخت فقا لـت
- و آخران في مطلع العجز،على الوزن نفسه: و شامت فقا لـت

ثمّ تلتقي هذه الأزواج متوازنة في مستوى ثان أوسع على منوال فعولن/ فعولن:

أصاخت/ فقالت
و شامت/ فقالت

كما يلتقي في الوزن مقولا القول في أكثر الكلمات مع اشتراكهما في الحلول بمقام المقطع من الشطر و ذلك قوله:

و قع/ أجرد/ شيظم
لمع/ أبيض/ مخذم

و إذ عبّر عن معنى مزدوج الاتّجاه وجد في المقابلة الأسلوب الوافي بحاجته حيث قابل بين السمع (أصاخت) و البصر(شامت) ليكشف أنّ التقلّب في ردّ الفعل و التأرجح في تأويل الواقع مرجعهما إلى اختلاف مصدريْ المعرفة اللّذين حكمتهما في الظاهر صورة المقابلة إلاّ أنّها مقابلة مفضية إلى معنى التكامل في صورة الموصوفة فإذا هي متشكّكة قلقة حيرى في حقيقة الحدث الذي تشهده.

و لعلّ ابن هانئ أكثر ما يخلد إلى مثل هذه الصناعة الفنيّة في مقامات الوصف، وصف أحداث الطبيعة، و وصف الجيوش، و وصف الخيل...و ممّا قاله في وصف الخيل شعر نسج أنغامه على أنغام وقع حوافر الخيل في تقريبها...نظمه على البحر المتقارب ذاته كما لو أنّ هذه البنية الوزنيّة أنسب لأداء تلك الصورة الفنيّة. قال في طالع القصيدة:

و السياسة. حقّق ذلك بأساليب متعدّدة و ضروب من الموازنة الجزئيّة و الكليّة، الأفقيّة والعموديّة، مع التقطيع الرباعيّ في البيتين الأوّلين:

ما شئتَ/ لا ما شاءت
كأنّما أنت / كأنّما أنصارك
هذا إمام المتّقين
هذا الذي ترجى النجاة بحبّه
هذا الذي تجدي شفاعته
كالبدر / كالبحر

و الموازنة يعضدها الترديد فيتعمّق الإيقاع بالتنغيم و يتحوّل القصيد إلى نشيد موقّع.
يضاف إلى ذلك التكثيف الدلاليّ بترديد صيغ الجمع و المبالغة مع حروف التفخيم: الواحد القهّار، الأخبار و الأحبار، الطغيان و الكفّار، الإصر و الأوزار، غطامط زخّار. و ممّا يكثّف الدلالة أيضا و يضاعف الإيقاع ، الترديد مع المجانسة بين الأصوات والأوزان:
" أنصارك / الأنصار- الأخبار و الأحبار...

و بناء الجمل الاسميّة في سلاسل متلاحقة تفيد القصر:

أنت النبيّ محمّد
أنت الذي كانت تبشّرنا به
هذا إمام المتّقين
هذا الذي...

جميع هذه الجمل تفيد القصر إذ هذه الصفات مقصورة على الإمام وحده لا يشاركه فيها مخلوق. كلّ ذلك أنتج إيقاعا منغّما حوّل القصيد نشيدا (hymne) بكلّ ما في الكلمة من معاني التقديس. و النشيد عند الإغريق هو التسبيح للآلهة و عند المسيحيّين التسبيح للربّ. أمّا ابن هانئ فهو يسبّح للإمام.
إنّ إخراج الكلام موقّعا في بنية غنيّة ، عهد قطعه ابن هانئ على نفسه. فإذا تصفّحنا الديوان من أوّله إلى آخره قلّما وجدنا قصيدة خالية من عنصر من عناصر الإيقاع.
و التحقيق في البيت الذي أثار سخط ابن رشيق يبيّن أنّ في البيت صنعة قائمة على حذق للبيان و تجويد لفنّ القول مع لعب بالكلمات جرّه إلى حظيرة التصنّع. قال الشاعر:

أصاخت/ فقالت:/ و قع أجرد شيظم وشامت/ فقالت:/ لمع أبيض مخذم [28]

[28] ق91. يقول اليعلاوي:" هذه القصيدة آخر قصائد الشاعر. بعث بها إلى المعزّ بالقاهرة والنّاظم بالمغرب.فهي تؤرّخ بشهر رجب 362ه وهو توفّي في 23 رجب من السنة ذاتها.

من الإشارة إلى ما يتّسم به موقف ابن رشيق تجاه الشاعر من احتراز و نكاد نقول من جحود. فهو، إن بدا له مادحا و في قبول شعره متسامحا ، مدحه بما يشبه الذمّ إذ قال:" أشبه النّاس..."

أمّا نحن – و موقفنا منه و من شعره موقف الباحث الموضوعيّ - فنقول: إنّ قوّة إيمان الشاعر بالعقائد الإسماعيليّة و إعجابه الصادق بالمعزّ وفرط ولائه له، ممّا ساهم في تعميق شاعريّته، فتضاعفت الشعريّة المذهبيّة بالشعريّة النصيّة التقليديّة و ارتفع بالممدوح إلى أسمى المراتب.و سما في قصائده إلى درجات عالية من الإبداع بما وظّفه فيها من أساليب غنيّة و ما أضفاه عليها من إيقاعات حيّة حوّلت القصيد إلى نشيد في التمجيد و التخليد.

لذلك نوجّه اهتمامنا في هذا القسم الأخير إلى البنية الإيقاعيّة في شعر ابن هانئ لنتبيّن خصائصها و نحلّل مكوّناتها.

من أبرز ميزات قصائد ابن هانئ و لاسيّما المعزيّات منها إيقاعاتها. فهي تقوم أساسا على الترديد و الموازنة بمختلف نسبها و أشكالها و على التقطيع و التقسيم و ما يصاحبهما من ترصيع أو تصريع.

يستوقفنا أوّلا المقطع الأوّل من القصيدة المذكورة و المسمّاة بالمستنكرة حيث قال في مستهلّها، مستغنيا عن المقدّمة الطلليّة، متّجها رأسا إلى الممدوح:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهّارُ
و كأنّما أنتَ النبيّ محمّدٌ و كأنّما أنصارُكَ الأنصارُ
أنتَ الذي كانت تبشّرنا به في كُتْبها الأحْبارُ والأخْبارُ
هذا إمامُ المتّقين و مَن به قد دُوّخ الطغيان و الكفّارُ
هذا الذي تُرجى النجاةُ بحبّه و به يحطّ الإصرُو الأوزارُ
هذا الذي تُجدي شفاعتُه غدًا حقّا و تَخمدُ أن تراه النارُ

يمثّل الطالع في " المستنكرة " بيت القصيد، بل هو عصارة الديوان. جاء محمّلا بمعاني الإثارة و الاستفزاز: الإمام هو الذي يشاء أو لا يشاء. و في القرآن الكريم ورد قوله تعالى:(وما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله). و البيت مشتمل على تحدّ و توحيد. توحيد للإمام لا للخالق، وتحدّ – في الظاهر- للخالق لا للإمام. و قد صيغ البيت صياغة إبداعيّة عمّقت ما فيه من إثارة و تحدّ. تزاحمت فيه الجمل . فهي أربع متسلسلة، مكتنزة، خالية من الفضول. تخيّر الشاعر للجمل الأساسيّة المواقع الحسّاسة من البيت: المطلع من الصدر و من العجز: " ما شئت... فاحكم"...والمقطع من العجز: " فأنت الواحد القهّار". جاء هذا المعنى نتيجة طبيعيّة لما سبقه من معان. ثمّ تأتي المقابلة بين جملتي الصدر: " ما شئت... لا ما شاءت".

على هذا الطالع قامت شهرة القصيدة لأنّ الشاعر يتعمّد صكّ الآذان و تكسير أفق الانتظار. همّه الأكبر أن يأتي في مدح إمامه بما لم تأت به الأوائل.

إلاّ أنّ أبرز ما يميّز هذا المقطع إيقاعه المنغّم. فقد كان نشيد تمجيد و تخليد بمختلف معاني النشيد، من معنى التغنّي إلى معنى التسبيح، كالتسبيح للآلهة مرورا بمعاني الحماسة والتحزّب

مـا شئتَ لا ما شاءت الأقـدارُ فـاحـكم فـأنت الواحد القـهّـارُ[24]
هذه القصيدة حذفت من معظم نسخ الديوان فلم ترد إلاّ في عدد قليل منها .

لكأنّ ابن هانئ في هذا البيت تعمّد أن يصدم القارئ ويصكّ سمعه وعقله، حين صدح منذ الطالع بأشدّ العقائد الشيعيّة مخالفة للسائد المألوف في الثقافة الإسلاميّة، ولا سيّما أنّ ما ورد في متن القصيدة من معان ليس أكثر غلوّا ممّا عبّر عنه في سائر المعزّيات.
هذه المبادئ الإسماعيليّة ذات قيمة شعريّة مضافة إذ هي شبه لبنات شعريّة جاهزة. والشعر غرائب لغة و عجائب أدب، تجاوز و تحدّ. و في شعر ابن هانئ توظيف لرصيد من كلم جوامع شبه جاهزة في التراث الإسماعيليّ. هذه الكلم الجوامع ذات شعريّة مذهبيّة في غير صناعة تقليديّة، فإذا حضرت في القصائد لحقت بها شعريّة تقليديّة تضاعف قيمتها.

القسم الثاني: القصيد/ النشيد

ما يميّز ابن هانئ في نظرنا، ليس ترديد هذه المقولات وصوغها شعرا. فقد كان للفاطميّين في افريقيّة ثمّ في مصر شعراء عدّة امتدحوهم وعدّدوا صفاتهم و أشهروا عقائدهم، ولكنّهم ما شبّهوا بالمتنبّي، و لا عدّوا في منزلته، و لا أثارت أشعارهم ما أثار شعره من إعجاب أو إنكار، من رضى أو سخط،، و لا شبّهت بـ" رحًى تطحن قرونا"[25]، و لا نعتت بـ "الجلبة والقعقعة بلا طائل معنى"[26].

ما من شكّ في أنّ متصفّح ديوان ابن هانئ يجد فيه جانبا من الأشعار يصدق عليها ما قيل في شأنها من نعوت سلبيّة، إذ يبدو الشاعر أحيانا، كأنّه يتعمّد قرع الأسماع بالغريب الخشن من الألفاظ أو خدش الذائقة بالجمع بين الأصوات المتنافرة من مثل قوله في وصف الخيل [الكامل]:

مـن كلّ يُعبوب سَبوح سَلْهـبٍ حَـصّ السياط عِنانُه الطيّـارُ
لا يطّـبيهِ غير كُبّـةِ مـعـــرَكٍ أو هَبْوةٌ مـن مـأْقِـطٍ ومُـغارُ
و أحـمُّ حـلكوكٌ و أصفرُ فـاقـعٌ منها وأشهبُ أمهقٌ زهّـــارُ[27]

فإذا به يرصف الغريب من أوصاف الخيل رصفا و يجاور بين الأصوات مجاورة غير مستساغة ذوقيّا، غير معتمدة عند علماء الأصوات.
على أنّ ابن رشيق نفسه يضيف في قولته المذكورة عن ابن هانئ قائلا:" و كانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة، فإذا أخذ في الحلاوة أشبه الناس و دخل في جملة الفضلاء". لا بدّ هنا

[24] ق53 وهي المستنكرة، محمد اليعلاوي، ص181(الهامش).
[25] تنسب هذه القولة إلى المعرّي.
[26] من قولة ابن رشيق المذكورة أعلاه.
[27] ق53،ب17و18و21.

الإمام حاز العلم جميعه ما يفهم الناس و ما لا يفهمون، أي علما ظاهرا و علما باطنا تقصر ألباب الناس عن إدراكه لذلك كان سرّا مكتوما لا يدركه إلاّ الإمام.

و من مظاهر ضرورة وجود الإمام أنّ الأئمّة مثل الجبال الرواسي أقرّ الله بها الأرض لمّا دحاها، إذ يواصل قائلا:

و آية هذا أن دحا الله أرضه و لكنّها لم تُرسَ من غير معلمِ[20]

و من صفات الإمام، القُدُسيّة. فهو من سلالة فاطمة الزهراء، وهو وريث الرسول و ابنُ النبيّ.هذه الصفة يردّدها ابن هانئ ترديدا و يؤدّيها في صور متميّزة بلاغة تعبير و عمق تصوير مستلهما القرآن و قصص الأنبياء، فيقول[الكامل]:

من أيْكة الفردوس[21] حيث تفتّقتْ ثمراتها و تفيّأ الأفياءُ
من شعلة القبس التي عُرضت علي موسى و قد حارت به الظَّلماءُ
من معدن التقديس و هو سلالةٌ من جوهر الملكوت وهو ضياء[22]

تتأوّل الإسماعيليّة الحديث النبويّ و القصص القرآنيّ تبرّر به معتقداتها المغرقة في المغالاة و يترجمها ابن هانئ في لغة شعريّة لا تعقيد فيها و لا إغراب تزيدها الموازنة إيقاعا وتنغيما و تكسبها الجمل الاسميّة إثباتا و تأكيدا.

و لعلّ من أكثر العقائد الإسماعيليّة غلوّا و بعدا عن العقائد الإسلاميّة المألوفة مسألة التوحيد. فهم- كما يقول زاهد عليّ – " ينزّهون الباري تعالى من جميع النعوت و الصفات كالصانع و القادر و الفاعل إلى غير ذلك، و لا يطلقون عليه شيئا منها. فإنّ إطلاقها عليه يوجب الكثرة في ذاته عندهم... والمبدع الأوّل و هو الأمر و الكلمة، منزّه عن جميعها لا يليق به شيء منها. و لمّا كان الإمام قائما مقام الأمر و الكلمة في هذا العالم، فجميع صفات الباري واقعة عليه، فلا عجب أن أطلق الشاعر صفتي " الواحد القهّار" على المعزّ لأنّه قال ما قال حسب اعتقاده"[23]. بهذا يبرّر زاهد عليّ ما ذهب إليه الشاعر من غلوّ في تلك القصيدة التي سمّاها القدامى بـ " المستنكرة" ، لأنّه - في اعتقادهم- قد أشرك فيها بالله إذ وضع الإمام في منزلة الخالق حين قال[الكامل]:

---

[20] ق91، ب181

[21] إشارة إلى ما جاء في الحديث من أنّ النبيّ أتاه جبريل بتفّاحة من الجنّة فأكلها فولدت له فاطمة.

[22] ق1، ب38-40.

[23] زاهد عليّ، مقدّمة التحقيق، ص58.

يقصّ حكاية مقدّسة و يروي حدثا وقع في الزمن الأوّل، زمن البدايات الخرافيّ"[17]. و يقول الشاعر من قصيدة أخرى[الكامل]:

هذا مَعدٌّ و الخلائق كلّها هذا المعزّ متوّجا و الدينُ
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله وغيبها المكنونُ
من أجل هذا قُدّر المقدور في أُمّ الكتاب و كُوّن التكوينُ
و به تلقّى آدمٌ من ربّه عَفْوا و فاء ليونُسَ اليقطينُ[18]

معدّ اسم المعزّ لدين الله، فالخلق كلّه مجتمع في الإمام إذ العالم جسم روحه الإمام بل فيه اجتمع الدين و الدنيا. و النشأة الأولى هي الدنيا، تقابلها النشأة الأخرى وهي الآخرة. فالإمام على هذا الأساس ليس إمام الجماعة الحاضرة فحسب، بل هو مقدّم في ضمير التاريخ، في ضمير الكون. و كلّ شيء في الكون إنّما خلق من أجل الإمام، و الخلق كلّه مجمّع فيه بداية بآدم مرورا بجميع الأنبياء و البشر قاطبة. يتغيّر شخصه من عصر إلى عصر و لا يتغيّر رمزه. تختلف هويّته المدنيّة و لا تختلف حقيقته الدينيّة.

تستوقفنا في هذه الأبيات طاقتها الشعريّة الكامنة فيها و قدرة الشاعر على صوغها في عياره بليغة و معان واضحة تقرّبها من الأذهان، بل و تحبّبها إلى القلوب. فهو قد كسر الزمن وطوّعه لعقيدته و أخضعه لترتيب عكسيّ. فما يبدو آخر هو في الجوهر و الباطن أوّل. وجدليّة الظاهر و الباطن من أسس العقيدة الإسماعيليّة. كلّ ما قدّرفي أصل التكوين إنّما قدّر من أجل الإمام. و حتّى الأحداث الكبرى التي وقعت في بداية النشأة مثل خطيئة آدم و عفو الله عنه و عن يونس ذي النون، و طوفان نوح- و قد ذكره الشاعر في موطن آخر- أحداث لم تقع- في اعتقاده- إلاّ تهيئة لظهور الإمام. هكذا يكسر الشاعر وحدتي الزمان و المكان ويجعلهما مقيّدتين بالإمام وظهور الإمام.

من صفات الإمام أيضا أنّ وجوده ضروريّ. فهو الذي ينشر الأمن و يملأ الأرض عدلا، و هو الوسيط المباشر بين الإنسان و خالقه لأنّه في معتقدهم يتقن جميع اللغات. يصوغ ابن هانئ ذلك شعرا فيقول[الطويل]:

و في الناس علم لا يظنّون غيره و ذلك عنوان الصحيف المُختَّمِ
إذا كانت الألباب يقصر شأوها فظلمٌ لسرّ الله إن لم يُكتّمِ
إذا كان تفريق اللغات لِعلّةٍ فلا بدّ فيها من وسيط مترجِمِ[19]

---

[17] Mircea ELIADE: *Aspects du mythe*, Gallimard 1963, p.15 .

[18] ق106، ب23-26. واليقطين: كلّ شجر لا يقوم على ساق نحو الدّباء والقرع والبطّيخ والحنظل. وكلّ ورقة اتّسعت وسترت فهي يقطين. وفي البيت تضمين للآية:" وأنبتنا عليه شجرة من يقطين" (الصّافات، 146) وفي البيت إشارة إلى قصّة يونس(ذو النون).

[19] ق91، ب178-180.

و الإمام مثل النبيّ معصوم لا يصدر منه خطأ لأنّه ملهم من الله بأعظم درجات الإلهام، مؤيّد منه إلى أبعد حدود التأييد، مؤتمن على هداية الخلق. و في ذلك يقول ابن هانئ[الكامل]:

من كان سيما القدس فوق جبينه فأنا الضمين بأنّه لا يجهلُ [13]

و يقول أيضا[البسيط]:

...مؤيّدا باختيار الله يَصحبه و ليس فيما يراه الله من خللِ [14]

و الإمام ظلّ الله في الأرض، و هو مظهر نور الله المنتقل من إمام إلى إمام. ومن أدرك هذا فهم مقاصد الشاعر في البيت الموالي:

و ما كُنْهُ هذا النور نورُ جبينه و لكنّ نور الله فيه مشاركُ [15]

إنّ انخراط ابن هانئ في الدعوة الفاطميّة الإسماعيليّة و تبنّيه عقائدها و صداحه بها شعرا، أخضع شاعريّته لنزعة مذهبيّة جليّة. و مرجع الظاهرة المذهبيّة إلى عقيدة و موقف فكريّ أي إلى مسألة دينيّة سياسيّة تتطلّب دفاعا و حجاجا و تندرج في مخطّط نضاليّ. فهي بالتالي تخضع لحدود و قيود تزجّ بها في مضايق قد تضعف الظاهرة الشعريّة الفنيّة. إلاّ أنّ معاني العقيدة الإسماعيليّة لها في الظاهر من الغرابة و المغالاة و التحدّي، بل من مخالفة الأعراف والمقدّسات ما يلحقها بباب الكفر و الإلحاد.و ما هي في الحقيقة سوى تعبير عن دقائق العقيدة التي تخالف عقائد غيرها من المذاهب، وليست دونها في توحيد الله و التمسّك بجوهر الإسلام عند أصحابها.

ثمّ إنّ قصائده و المعزّيات على وجه الخصوص بمثابة البيانات السياسيّة في الإمام. و عن مقولة الإمامة تتفرّع سائر المقولات الشيعيّة. فهي أمّ العقائد عندهم. وفيها تتجلّى ظاهرة المغالاة أقوى تجلّيا وهي المتسبّبة في نعتهم إيّاه بالكفر و الشرك. و هي التي استقطبت جلّ معاني المدح عند ابن هانئ في المعزّيات التي تهمّنا بالدرجة الأولى. فتناول هذه المقولة بجميع دقائقها، و صاغها صياغات متنوّعة، فلا تكاد قصيدة تخلو من أثرها.

منها أنّ الدنيا بجميع مخلوقاتها، من أجل الإمام خلقت. فهو علّة الدنيا و ضمير النشأة، وهذا من جوامع الكلم، و في ذلك يقول[الكامل]:

هو علّة الدنيا و مَن خُلقت له و لعلّة مّا كانت الأشياءُ [16]

يضفي الشاعر على مقولة الإمامة صبغة الأسطورة ويرفعها إلى زمن البدايات، بدايات الخلق و التكوين. و الأسطورة – كما يعرّفها مؤرّخو الأديان و علماء الإنسان – " خطاب

---

[13] ق83، ب 42.
[14] ق82، ب 12.
[15] سبق ذكره
[16] ق1، ب 36.

فيها رفع من قيمة الإنسان بإعانة السماء و نصر من الله في جميع المواقف، و هذا من شأنه أن يدفع عن الشاعر التهمة بالكفر كما يتّضح من قوله في هذا السياق[الكامل]:

يا أرضُ كيف حملتِ ثِنْيَ نِجاده و النصر أعظمُ منكِ والتمكينُ
حاشا لما حُمّلتِ تحملُ مِثْلَه أرضٌ، و لكنّ السماءَ تُعينُ [11]

زجّ ابن هانئ بنفسه في مضايق المذهبيّة، نعم! لكن عن وعي منه و اختيار. لزم ما لا يلزم، و لم يلتزم بما يلزم. فكانت منه مغامرة قاومها النقد بالمحاصرة.

من نتائج التزام الشاعر بعقيدته في شعره تعبيرا و تفكيرا، أنّه سدّ أُفق التلقّي التقليديّ الذي ألف الناس أن يجدوا الشعر مستجيبا له، و صرّف شعره في معان تصدم الذائقة التي كانوا يتقبّلون الشعر بها، فقال فيه من لم يكن على مذهب الشيعة، كفر. و لئن ضيّق الشاعر على نفسه حين اختار التحرّك في مجال موحّد الإلهام فإنّه لم يضيّق على متلقّيه، و لا يمكن اعتباره مسؤولا عن ضيق الأفق لأنّ ضيق الأفق-هاهنا- من ضيق الخُلُق، وإلاّ فإنّ الشاعر أحدث فيما استحدث فتوحا واسعة لا يعجز عن أن يجول فيها إلاّ من فرض على نفسه رقابة ذاتيّة خانقة.

و الحاصل أنّه سدّ عليهم أفق التلقّي المألوف، فقالوا ضاقت معاني الشعر عليه. و أحدث في شعره فتحات على ما يخالف ما اعتقدوه، فأنكروها عليه و كفّروه. إلاّ نقّادا يميّزون، وبعضهم من أهل السنّة، استجادوا شعره رغم تكفيرهم إيّاه حتّى بوّؤوه منزلة المتنبّي.

التعريف بالعقائد الاسماعيليّة و أساسها مبدأ الإمامة و تجلّياتها في شعر ابن هانئ

الإسماعيليّة من غلاة الشيعة، و عقائدهم أكثر العقائد تعقيدا و إغراقا في الذهنيّة إذ استقت من منابع عدّة: يهوديّة و نصرانيّة، دينيّة إذن و فلسفيّة أيضا. و هي تقوم أساسا على مبدإ الإمامة. فمن واجب كلّ شيعيّ طاعة الإمام و تقديسه، بل من شروط صحّة إسلامه معرفته إمام زمانه إذ يقولون: " من مات و لم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة ".

و الإمام في تقديرهم مشارك للنبيّ في كلّ فضيلة إلاّ في الرسالة. فكلّ صفة اتّصف النبيّ بها باعتباره أمين الله وهادي الخلق و وارث الأرض، و شفيع الناس، جميعها صفات تصدق على الإمام أيضا. ترجم ابن هانئ ذلك شعرا في قصائد كثيرة منها قوله[الكامل]:

هذا أمين الله بين عباده و بلادِه إن عُدِّد الأمناءُ
هذا الشفيع لأمّة يأتي بها و جدودُه لجدودها شُفعاءُ[12]

فالإمام – بعد النبيّ- حامل الأمانة الإلهيّة بين العباد، المسؤول عنها في البلاد، الضامن المباشر لحسن عافية الأمّة بفضل الشفاعة.

[11] ق106، ب 28 و 29.
[12] ق1، ب 48 و 49.

قويّة نشأت بإفريقيّة في الغرب الإسلاميّ، ثمّ بسطت نفوذها على مصر و على قسم من الشام، فسارت.

في القرن الرابع عرفت أوجها. و في شعر ابن هانئ شهدت توهّجها. لذلك ابتعد شعره عن البكائيّة، و جاء على النقيض، يزخر و يفيض، شدّة حماسة و عزّة ممّا أهّله ليخدم القضيّة خير خدمة و يسمو بالعقيدة الشيعيّة الإسماعيليّة إلى أعلى مراتب المجد، مانحا مقولاتها قداسة الوصايا و جديد العهد.

مضايق أم فتوح؟

ذكرنا في البداية كلام ابن شرف الذي ختمه بقوله:" و لو عقل لم تضق عليه معاني الشعر حتّى يستعين عليه بالكفر" يبدو إذن أنّ ابن هانئ باعتناقه المذهب الإسماعيليّ وتسخيره شعره للإشادة بعقائده و مدح الدولة الممثّلة له إذّاك و هي الدولة الفاطميّة و خليفتها الرابع المعزّ لدين الله الفاطميّ قد ضيّق على نفسه آفاق الشعر الرحبة و فتحات القول الواسعة.

من مضايق المذهبيّة النزعة الذهنيّة. هذه النزعة ما دخلت الشعر عادة إلاّ أدخلت الضيم عليه. فيها التزام بحدود، و سير في قيود. الرأي فيها جاهز. و راءه سلطة مناضلة. يُجهر به لتعبئة طاقات النضال بحقيقة العقيدة المختارة لا لدغدغة العواطف بما تعوّد أصحابها الحلم به من عوالم غير مرتادة.

و من مضايقها أيضا أن يتوحّد الإلهام فيها و أن تختصّ موضوعات القول بها. فهي المعين الأوحد و الموضوع الأوّل و الآخر، كالشأن عند ابن هانئ. تؤول أغراض الشعر في ديوانه إلى غرض واحد غالب هو المدح. لا نكاد نجد سواه من الأغراض التي تتوزّع الشعر في الديوان باستثناء مراث ثلاث نظمها زمن كان مقيما بالمسيلة عند جعفر و يحيى ابنيْ حمدون، وشذرات من الفخر والوصف و دونهما الهجاء، متفرّقة في المدائح.

و ما كان المدح عنده على حقيقة المدح المتعارف، بل على طريقة جديدة مخالفة، إذ الشاعر في معزّيّاته لا يمدح إنسانا بل كيانا، و لا يطري فردا بل يمجّد رمزا. هو نور الله، هو – في اعتقاده و شيعته- أصل الخليقة. هو الواسطة المباشرة بين الخالق و المخلوق. من هذا المدح المعجز قوله[الطويل]:

- وما كُنهُ هذا النور نورُ جبينه و لكنّ نور الله فيه مشاركُ [9]
- و بذا تلقّى آدمٌ من ربّـــه عفوًا و فاء ليونُس اليقطينُ[10]

على جبين الممدوح نور على نور، بشريّ و إلهيّ، اجتمعا فيه و تجاورا في تحدّ للزمان والمكان. حادثه مرافق للإمام الإنسان، و قديمه مقدّر للإمام الرمز في أصل التكوين كما قدّر لآدم و النبيّين و جميع الرسل المختارين، تقدير المشاركة، مشاركة في النوع لا في الدرجة.

[9] الديوان، تحقيق محمد.اليعلاوي، ط.1، ق75، ب29.
[10] ق106،ب 26.

فعسانا بهذا البحث المتواضع و بغيره من البحوث التي عقدناها بشأنه[8] أن نسهم في التخفيف من غربة هذا الشاعر.

القسم الأوّل : المغالاة/ المحرّمات

عقيدة ابن هانئ

ابن هانئ شاعر شيعيّ المذهب اسماعيليّ النزعة. نذر لعقيدته حياته و سخّر لها شعره، ولا يبعد أن يكون تربّى عليها في نشأته. فبعد خروجه فارّا من الأندلس، اتّصل بجعفر ويحيى ابنيْ حمدون عامليْ الزاب من قبل المعزّ لدين الله، الخليفة الفاطميّ (341-356/953-975)، وأقام عندهما ينظم فيهما المدائح، و قد يلغ شعره فيهما ثلاثين قصيدة، إلى أن نما خبره إلى المعزّ فأرسل في طلبه. فبادر الشاعر، فوجّه مدحتين إلى الخليفة تسبقان وصوله. و ما إن حلّ بالمنصوريّة في جوار المعزّ، حتّى وجد فيه خير حام و أشرف راع. فجدّ في الإشادة به باعتباره رمز الفاطميّة، و في نشر مبادئ الشيعة الإسماعيليّة مترجما شعرا ثقافتها العقديّة الدينيّة السياسيّة بما فيها من إيغال تعقيد و مغالاة معتقد. و بذلك صار شاعر الدولة الفاطميّة دون منازع، الناطق الرسميّ باسم المعزّ خليفتها الرابع.

على أنّ نزعة ابن هانئ الشيعيّة قد تعود في الزمن إلى ما قبل ذلك بكثير. فإليها يعزو عدد من المؤرّخين و أصحاب التراجم أسباب خروجه من الأندلس، و لاسيّما أنّ والده هانئ، بالمهديّة ولد و نشأ و صار داعيا شيعيّا. و ارتحل إلى اشبيلية بالأندلس يبثّ سرّا الدعوة الشيعيّة، حسب ما ذكر في بعض المصادر.

ابن هانئ حلقة من سلسلة إلاّ أنّها واسطة العقد متميّزة

منذ بدء الدعوة كان للشيعة شعراؤهم الذين يذودون عنهم بأشعارهم . يثبتون حقّهم في الخلافة، و ينشرون مبادئهم: يمجّدون أئمّتهم و يهجون أعداءهم.

فمن شعرائهم: كثيّر عزّة(ت105/ 723) و الكميت بن زيد الأسديّ(ت126/ 743) في هاشميّاته، و السيّد الحميريّ(ت789/173) و قد عرف بمغالاته في مدح آل البيت و هجاء كلّ من سواهم من الصحابة و التابعين و الأنصار و المهاجرين... حتّى الخلفاء الراشدين. و من شعرائهم أيضا دعبل الخزاعيّ(ت 246 /860). و قبلهم جميعا، أبو الأسود الدؤليّ(ت688/69).

ثمّ جاء ابن هانئ متنبّي الغرب. فهو إذن حلقة من سلسلة متواصلة الحلقات. لكنّه تميّز عن سابقيه و ربّما كذلك عن لاحقيه، بالنشاط في ظرف سانح، و بقوّة نضال بناها على أنقاض نزعة بكائيّة تقليديّة مشهورة. فقد ظهر في القرن الرابع،" القرن الإسماعيليّ" كما قيل، عصر السلطة، و السياسة الصلبة التي مكّنت الشيعة الإسماعيليّة بعد جهاد مرير من إرساء دولة

[8] من ذالك أيضا بحث بعنوان:فنّيات الاستهلال في قصائد ابن هانئ الأندلسيّ المغربيّ. حوليات الجامعة التونسيّة، عدد37، 1995، ص 55-90.

ابن هانئ شاعر تضاربت حوله و حول شعره الآراء و اختلفت المواقف.و من أشدّ الناس قسوة عليه المغاربة أبناء وطنه. قال عنه ابن شرف(ت. 460/ 1067):"... كان في دينه في أسفل منزلة، ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد آخرته... و لو عقل ما ضاقت عليه معاني الشعر حتّى يستعين عليه بالكفر"[1]. فكان في نقده له مهتمّا بالمعنى دون اللّفظ، منشغلا بما تضمّنه شعره من مغالاة في المعاني الدينيّة وصلت به، في نظره، إلى حدّ الكفر. و قال ابن رشيق(ت.456/ 64-1063 أو 463/ 71- 1070):"... و فرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طائل معنى إلاّ القليل النادر كأبي القاسم بن هانئ و من جرى مجراه".فجاءت قولته أشدّ دقّة و إن على جانب كبيير من القسوة، إذ جرّد شعر الشاعر –" إلاّ القليل النادر"- لفظا و معنى، من كلّ قيمة فنيّة[2]. أمّا ابن خلّكان (ت. 681/ 1282) فيرفعه إلى أعلى المراتب إذ يقول:" ليس في المغاربة من هو في طبقته، لا من متقدّميهم و لا من متأخّريهم، بل هو أشعرهم على الإطلاق.وهو عندهم كالمتنبّي عند المشارقة"[3].هذا الرأي يتعلّق بالقيمة الشعريّة عموما أطرى فيه ابن خلّكان ابن هانئ إذ رفعه إلى منزلة المتنبّي وإن لم بتجاوز به حدود المغرب العربيّ.

من هؤلاء النقّاد إذن، من حطّ من قدره و نزل به إلى الحضيض، و منهم من رفع شأنه فشرّفه بمنزلة التنبّؤ.

نتيجة لمثل هذه الآراء أهمل شعر ابن هانئ و أصبح الشاعر في عداد المغمورين. فبعد أن ملأ الدنيا بأشعاره لم يشغل الناس، لا لأنّه من المغرب بل لأنّ شعره مُغرب.

و في عصرنا هذا، كان من أبرز المهتمّين به ، الباحث الهنديّ الإسماعيليّ زاهد عليّ. فقد حقّق ديوانه و شرحه في مؤلّف ضخم بعنوان: " تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني" مع مقدّمة ضافية[4]، و محمّد اليعلاوي و قد خصّ الشاعر بكتابه المتميّز " ابن هانئ الأندلسيّ الإفريقيّ شاعر الدولة الفاطميّة"[5] و بتحقيق جديد للديوان[6] أردفه بطبعة ثانية. عدا ما خصّه به من بحوث و مقالات. فردّ بذلك الاعتبار لـ"هذا الشاعر الغريب في وطنه" كما وصفه في عبارة خصّنا بها عندما شرّفنا بإهدائنا نسخة من هذا التحقيق.

و من مظاهر ردّ الاعتبار لابن هانئ إدراج شعره من جديد في برامج التدريس بالمعاهد الثانويّة بتونس بعد أن غيّب منها طيلة ما يقارب الثلاثة عقود. و قد أشرنا ، في بحث سابق عقدناه له[7] إلى هذه الثغرة و نبّهنا إلى ما يلقاه شعراؤنا القدامى من إهمال في الكتب المدرسيّة.

---

[1] مسائل الانتقاد، تحقيق وترجمة شارل بلاّ، الجزائر 1953،ص ص40-42.

[2] العمدة، باب اللفظ والمعنى، ج 1، ص 124.

[3] وفيات الأعيان ، ترجمة ابن هانئ.

[4] القاهرة ، 1933.

[5] أطروحة دكتورا دولة نشرت بالفرنسية ، تونس 1976 ثمّ عرّبها المؤلّف و نشرها في بيروت 1985.

[6] تحت عنوان: ديوان ابن هانئ الأندلسيّ ، طبعة مزيدة، بيروت 1994. و في مقدّمة التحقيق ص 11 يقول اليعلاوي :" إنّه شاعر كبير يضاهي معاصريه من الشرق والغرب". انجزنا تقديما نقديّا لهذا التحقيق.انظر: حوليّات الجامعة التونسيّة عدد 47،2003.

[7] وهو بعنوان:ابن هانئ متنبّي الغرب، هل ملأ الدنيا و شغل الناس؟ أعمال ندوة: مجادلة السائد في اللغة والأدب والفكر، تونس 2002 .